جلاء ... وجلاء

صفحة من الكفاح المصري منذ ١٥٠

للأستاذ محمد محمود زيتون

ابتليت كنانة الله في أرضه بالاحتلال الفرنسي ، والأمراء المماليك يسومون أهلها سوء العذاب ، وسلطان العثمانيين يتقلص ظله من حيث لا يشعرون . ثم إن هذه الفترة قد سجلت صراعا محتدما بين إنجلترا وفرنسا من جانب ، وبين تركيا والمماليك من جانب آخر

زعم نابليون أن مصر ستنقاد له بمجرد إذاعة المنشورات التي أعدها وهو لا يزال يمخر عباب البحر ، ولم يكن يدري أن المصريين يستعدون للمقاومة الشعبية منذ ترامت إليهم أنباء تحرك سفن الحملة من جزيرة مالطة في طريقها إلى الإسكندرية

وفي الحق أن الحملة كان مقضيا عليها بالفشل ، منذ ألقت مراسيها بالاسكندرية في ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ لأن المتاعب التي ستواجهها ستزيد على الحصر . وإذا كان في الإمكان ضرب عدو بآخر للتخلص منهما معا مما لا يحتاج في العرف السياسي إلى غير الحنكة والدهاء ، فإن اليقظة الشعبية كانت بمثابة الصخرة الغليظة في حلق الاحتلال

ومنذ الساعة الأولى بدأت قوات الاحتلال تطارد المماليك حتى تشتت شملهم في أقاصي الصعيد ، وخذلوا الشعب الذي لم ير بدا من الدفاع عن شرفه ولو لم يكن لديه من سلاح إلا الحجارة والقلاع وأبواب الحارات والسلاسل والمتاريس

وبينما كان الفرنسيون يتوغلون في البلاد كانت الأنباء تتراءى شرقا وغربا . أما تركيا فكانت مشغولة ببلواها عن بلوى غيرها ؛ وحسبها قلاقلها الداخلية ومشاكلها الخارجية . وعز على إنجلترا — وهي سيدة البحار وأم الاستعمار — أن تنافسها فرنسا في مصر وهي مفتاحها إذا هي أرادت الإبقاء على أكبر جوهرة في تاجها الامبراطوري الذي لا تغيب عنه الشمس

ولم يكد شهر يمضي على المحتلين حتى كانوا مضرب المثل في الإجرام : سفكوا دماء الأبرياء ، وأعدموا زعماء الوطن رميا بالرصاص ، وملأوا السجون والمعتقلات بعلماء الدين ، فما وقروا شيبتهم ، ولا رحموا ضعفهم ، ومضوا بعد ذلك إلى المدن والقرى ينهبون ويسلبون ، وهتكوا الأعراض في غير رحمة ، وانتهكوا حرمات بيوت الله والناس ، وتجردوا تماما من العاطفة الإنسانية أو ما يشبهها ، وتفننوا في التنكيل بالشعب من كل لون . فأحرقوا الدور بعد انتهاب ما فيها ، وأشعلوا النيران في محاصيل الفلاحين ، وبتروا أقواتهم واستاقوا مواشيهم ، وأثقلوا كواهلهم بالضرائب والغرامات والقروض ، فلم ير المواطنون بدا من الهجرة على غير هدى تاركين ديارهم خرابا يبابا ليس بها ديار ولا نافخ نار . وأما الذين لم يهاجروا فقد أرغمتهم السلطة الغاشمة على دفع الغرامة عنهم وعن جيرانهم المهاجرين

وفي أول أغسطس أوقع الأسطول الإنجليزي بالأسطول الفرنسي هزيمة منكرة في مياه أبو قير ، وعلى أثرها غير نابليون سياسته المنيفة فأقام الحفلات بمناسبة المولد النبوي تملقا للعاطفة الدينية عند المسلمين وهم السواد الأعظم ، ومع ذلك فإنه ما وجد منهم غير الإعراض التام . حتى إذا جاء يوم ٢٢ سبتمبر وحلت الذكرى الأولى لعيد الجمهورية الفرنسية ؛ دعا نابليون علماء مصر وأعيانها إلى حفل كبير بالأزبكية توسطه عمود ضخم يرمز إلى شجرة الحرية التي يزعمون أن الثورة الفرنسية قد غرست منها ، وما رأى المصريون فيها إلا رمزا على الاستعباد فسموها « خازوق الاحتلال »

اغتاظ نابليون من هذا الموقف السلبي ؛ وأسرها في نفسه وعاودته غريزة الذئب الغادر ، فقسا ليزدجروا ، وزاد تنكيلا ليرجموا ، وأصدر بذلك أوامره المشددة إلى حكام الأقاليم ، كتب إلى قومندان المنوفية يقول « يجب أن تعاملوا الترك (الأهالي) بمنتهى القسوة ، وإني هنا (في القاهرة) أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برءوسهم في شوارع القاهرة . وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد الشعب قاطبة من السلاح »

وكتب إلى الجنرال مينو قومندان رشيد بأنه يأمر بقتل

خمسة أو ستة يوميا ثم يقول له « لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى تزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب تلك التهمة التي كانت تسبقنا إلى أذهان الناس » وصدق المثل : رمتني بدائها وانسلت، ولكن هيهات هيهات أن ينفذ شعاع من رحمة إلى قلوب المتوحشين الذين جاءوا من أوربا الجائعة ليشبعوا جوعهم من دماء الوادعين في بلادهم

وإذ ذاك كانت « لجنة الثورة » تنعقد بالجامع الأزهر ، وقد استنفد العلماء والحكماء كل السبل لحقن الدماء واستتباب الأمن ؛ فكان لابد أن تنفجر مراجل الصدور بهذه المظالم الفادحة والمجازر البشرية

وفي ٢١ أكتوبر انطلقت الأنفاس المحبوسة ، واندفعت القاهرة اندفاع الصاعقة ، ولم يعد بالديار داع أو مجيب . وتجسمت ثورة القاهرة سخطا وحنقا على الناصبين ، واغتيل القائد الفرنسي (ديبوى) واحتمى الثوار بالأزهر بعد أن أقاموا جميع الاستحكامات على المنافذ المؤدية إليه

وذهل الفرنسيون أمام هذه الأمنة المنصبة عليهم من كل جانب ، فأصدر الجنرال بون Bon أمره في ٢٣ أكتوبر « بهدم الجامع الأزهر ليلا إذا أمكن ، وترفع الحواجز والبوابات التي كانت تسد الشوارع »

وأطلق الفرنسيون مدافعهم الثقيلة على الثوار ، فكانت ضحايا المصريين أكثر من أربعة آلاف حسب تقدير الجنرال (بليار) . وانترك للجبرتي مؤرخ العصر يصف لنا هذا المشهد الأليم إذ يقول « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم الشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، ومانوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها .. »

وفي هذه الغمرة يفتح نابليون صدره العريض لإحدى نوافذ قصر الألفي وما يلبث أن يعود إلى مكتبه فيصدر الأمر الكريم « بقطع رءوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم الأسلحة ، وعليكم إرسال الجثث في هذه الليلة إلى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها في النهر »

ولم يكن خافيا على فطنة العلماء أن المماليك بدأ في تحريض الأهالي ضد الفرنسيين مما زاد الدار اشتعالا ، فأذاعوا البيانات في الناس بغية التزام السكينة والتذرع بالصبر « فلا تعلقوا آمالكم بإراهيم ومراد ، وارجعوا إلى مالك الملك وخالق العباد؛ وذهب وفد العلماء إلى نابليون يتشفعون في جلاء خيوله عن الأزهر ، فأجابهم إلى طلبهم . ثم أحصى المحرضين على الثورة من العلماء فسرعان ما ألقى القبض عليهم ، وعجلان ما حوكموا سرا وأعدموا رميا بالرصاص . وضاعف الفرنسيون من تحصين القاهرة وإقامة المعاقل في أهم شوارعها استعدادا لكل ما عساه يجد من أحداث

ومن وسائل الاحتياطات التي اتخذها نابليون أن أرسل المهندسين لجباية الغرامات من الأهلين ، وهم الذين كادوا يهلكون جوعا وعريا بعد أن هام أكثرهم على وجوههم في القرى ، وبعد أن أصبحت البيوت لا عائل لها يدبر أمرها ، تلك البيوت التي اقتلع المهندسون الفرنسيون أبوابها وأبواب الحارات التي تضمها ونبشوا القبور ونقضوا البيوت ليتخذوا من الحجارة والأخشاب تحصينات للقلعة ، مما كان سببا قويا لاستفزاز الأهالي ، وانقضاضهم على كل من يلقونه في وجوههم فكانت الضحايا من المهندسين فوق الحصر

وسرت الثورة في كل مكان سريان النار في الهشيم حتى عمت الدلتا والصعيد . فاتسع الخرق على الراقع ، وضاق بونابرت ذرعا بهذا العدو الذي ما من صداقته بد ، والذي استعصى على الترويض ، والذي أنزل برجاله هذه الخسائر وهو الذي لا مدفع معه ولا رصاص

واعتزم نابليون أن يخمد شوكة المصريين ويزعزع يقينهم بالكفاح المرير في سبيل الحرية والاستقلال ، فأنفذ حملة الشام التي لم تأت بالثمرة المشتهاة ، فلا هو فتح الشام ولا هو أذل مصر

فاشتعلت الثورة من جديد في الشرقية بينما كان جيشه يرتد مهزوما أمام عكا الحصينة ومعه الجرحى والقتلى ممن لا أعداد لهم

واضطربت الأحوال في فرنسا حينذاك ، فاستدعت حكومة الدير كتوار قائد الحملة على مصر ، ولكن الأسطول الإنجليزي المتربص للفرنسيين في البحر حال دون وصول الرسالة إلى مصر . ومع ذلك تمكن الماكر الداهية من الإفلات فغادر الإسكندرية في ليلة ٢٣ أغسطس بعد أن أناب عنه كليبر وزوده بالتعليمات الكافية ، ومن أهمها « إن من يكسب ثقة كبار المشايخ في القاهرة يضمن ثقة الشعب المصري » ورأى نابليون قبل مغادرته مصر أن تركيا قد بدأت تحالف الإنجليز ضد فرنسا على حساب مصر ، ففوض كليبر في عقد الصلح مع تركيا ولو كان ثمن ذلك جلاء الفرنسيين عن مصر نهائيا

أحاطت المشاكل بكليبر من كل جانب ، فالفرنسيون قد انهارت روحهم المعنوية ، وتفشت الأمراض فيهم ، وقضت الثورات على مهندسيهم ، ونهب الثوار آلاتهم الفنية النادرة ، ولم يسلم القواد أنفسهم من الإصابات والجروح حتى نابليون نفسه ، ونقص الإيراد وضعف الإنتاج وتراكمت الإتاوات والغرامات وتربص الإنجليز والترك للفرنسيين على الشواطئ ، وقطع الحصار البحري على الحملة الإرهابية كل سبيل ، وكتب المسيو بوسليج في تقريره إلى حكومة الدير كتوار يقول « . . إن اختلاف العادات — وأهم منه اختلاف اللغة وخاصة اختلاف الدين — كل ذلك من العقبات التي لا يمكن تذليلها والتي تحول دون إيجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . إنهم يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الآستانة ، ولا يحبون حكمنا ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه »

وظل كليبر يحاول في الجلاء كلما تغلب على المحاولات البحرية العثمانية التي دأبت على مناوشته على شواطئ مصر ، فلما تمت معاهدة العريش المعروفة في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ بين فرنسا وتركيا قبل القائد الفرنسي الجلاء عن مصر رغبة منه على حد قوله في «وضع حد لسفك الدماء ، وإنهاء النزاع القائم بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي »

وفي فضون الأشهر الثلاثة المقررة للجلاء نزلت القوات التركية تدريجيا بالأراضي المصرية وأمعنت في تعسفات غاشمة من النهب والسلب والإرهاب وابتزاز الأموال بحجة الحاجة إلى مصاريف إمداد الفرنسيين ، فجمعوا الغلال ، واحتكروا المؤونة وشاركوا المواطنين في الحرف ونافسوهم في أرزاقهم مما أثار السخط العام على الأتراك والفرنسيين من قبلهم

وتأججت نيران الثورة من جديد لعدم اعتراف انجلترا بمعاهدة العريش تلك ، وألبت المصريين على كليبر ، فلم يجد بدا من التفريق بين فلول المماليك وبين المصريين من جهة وبين هؤلاء وبين العثمانيين من جهة أخرى ، فاتفق مع مراد بك على أن يطلق يده في الصعيد نظير شروط دفاعية وأموال وغلال . فلما شبت ثورة القاهرة في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ أشار مراد بك على كليبر باضرام النار في العاصمة

وبعد شهر من هذا التاريخ استطاع كليبر أن يخمد الثورة ، ويطارد العثمانيين ، فوطد مركزه ، وأبعد من حسابه فكرة الجلاء . فلما فاوضه الانجليز والعثمانيون في تنفيذ معاهدة العريش أبى ولج في الطغيان ، حتى لقي حتفه بطعنة من خنجر سليمان الحلبي في ١٤ يونيو وخلفه مينو الذي ورث عن سلفه أفدح الأعباء التي ينوء بحملها قائد متخاذل مثل مينو

أتقن مينو دوره الاستعماري أيما إتقان ، فأعلن إسلامه وتزوج أرملة مسلمة من رشيد ، وخالط الناس في المساجد والمحافل ، وأظهر الورع حتى صلى معهم التراويح ، وتظاهر بمقت الكليبر حتى لقد سمى ابنه باسم قاتل خصمه ، ولكنه ما لبث أن قلب المصريين ظهر المجن ، وبرح خفاؤه ، حين اتهم الأزهر بتدبير اغتيال سلفه فأمر بتفتيشه وإرهاب علمائه ، وحاول أن يقف على شيء يدل على ما للأزهر من يد في مؤامرة اغتيال كليبر ، ولكن دون طائل ، واقترح العلماء غلق الأزهر بدلا من أن تشن عليه الحملات الارهابية وحقنا لدماء المواطنين ، وإبراء لذمتهم من دم كليبر

ومع ذلك ظل مينو سادرا في غلوائه وغطرسته ، فلم يكف عن سياسة سابقه . ومما زاد في تعزيز مركزه تلك المدة التي

أنفذها إليه نابليون من فرنسا ، واستطاع أن يهربها فأفلتت من الرقابة الانجليزية المنبثة في أرجاء البحر . غير أن الأمل لم يطل مداه حينما ترادفت قوات الانجليز والأتراك على مصر عند كانوب في الأسبوع الأخير من مارس ، وسقطت المدن المصرية صرعى احتلال جديد بينما كان الطاعون لا يزال يفتك بالمواطنين والأجانب فتكا ذريعا

نكص الفرنسيون على أعقابهم إلى القاهرة وطلبوا المدد من حليفهم مراد بك فعاجله الطاعون في سوهاج وهو في الطريق إليهم ، فأدركوا حرج موقفهم ، واضطروا لمفاوضة أصحاب هذه الغارة — وهم على أبواب القاهرة — في جلاء الفرنسيين أنفسهم، وافق ذلك هوى . وفعلا عقد بليار اتفاقية الجلاء في ٢٧ يونيو دون علم مينو ، وأفرج عن المعتقلين في القلعة من العثمانيين والمصريين . ولم تستطع المعدات الجديدة أن تصل إلى مصر فمادت أدراجها إلى طولون . وكادت تنتهي الخمسون يوما المحددة للجلاء برا وبحرا ، ولكن الفرنسيين أخذوا يماطلون حتى حاصرهم الانجليز حصارا كاد يودى بهم ، فعقد مينو مجلسا عسكريا من رجاله ، فأجمعوا الرأى على الجلاء

وهنا أملى الانجليز شروطا أقسى من ذى قبل حتى لقد أوجبت على العلماء الفرنسيين أن يسلموا بحوثهم وأدواتهم وحتمت عليهم هذه الشروط أن يتم الجلاء في مدى عشرة أيام ، وأن يسلموا سفنهم بما عليها من عتاد ، وبمن عليها من جنود . وبدأ الفرنسيون يسلمون القلاع والذخائر في ٢ سبتمبر ، غير أن العلماء تذمروا لحرمانهم من ثمرات قرائحهم ، وفاوضوا هتشنسون في ذلك فأبى عليهم حمل الآثار المصرية معهم ، وسمح لهم بما دون ذلك

وفي هذه الأثناء كان نابليون قد انتهى من مفاوضاته مع انجلترا بما يسمى « مقدمات لندن » في أول أكتوبر سنة ١٨٠١ وبمقتضاها يكون الاتفاق على جلاء الطرفين معا عن مصر

ولم تكد شمس يوم ١٨ أكتوبر تغرب حتى كانت قوات الاحتلال الفرنسي — وعدتها وقتئذ ثلاثة عشر ألفا — قد أخذت طريقها في البحر تجرر أذيال الخيبة ، وفي مؤخرتها عبد الله جاك مينو . وبذلك اليوم انطوت صفحة ثقيلة من تاريخ مصر لطخها الاستعمار والاستغلال بالظلم والارهاب . وأثقل المحتلون فيها كاهل مصر بالسخط والتذمر على أوربا الغادرة

وظن الانجليز أن الجو قد خلا لهم فأفسحوا صدرهم للماليك ليضربوا بهم الأتراك عن يمين والمصريين عن شمال . وظلوا يتلكأون في الجلاء حتى استعجلهم نابليون فتركوا البلاد لأهلها في ١٦ مارس سنة ١٨٠٣ ، ومعهم صنيعتهم محمد بك الألفي ، وبين يديه البقية الباقية مما نهبه من الصعيد ، وقد طوى جوانحه على أمل أن يعيده السادة الانجليز قريبا وقريبا جدا ليكون ملك مصر المنتظر

وهكذا قضت مصر هذه الحقبة من تاريخها تحت كابوس الاحتلال الفرنسي ذاقت في خلالها مرارة ما بعدها من مرارة . وحسبها أنها اعتمدت على إرادة شعبها الأبي الحر فواجهت الظلم المسلح وهى عزلاء من كل سلاح ، اللهم إلا الإيمان بالحق المغتصب ، والكفاح في سبيل الشرف الرفيع . ولم يعرف التاريخ أمة غير مصر تداعت عليها القوة الغاشمة مجتمعة فكافحتها جميعا في آن واحد غير معتمدة إلا على الايمان والوحدة والمصابرة ، وبذلك قضت على انجلترا وفرنسا وتركيا والماليك والطاعون جميعا

وما كان المصريون لينسوا منذ اللحظة الأولى للاحتلال الفرنسي مبلغ ما تنطوى عليه عبارة نابليون في منشوره الأول من مغالطة وقحة إذ يقول إن « الديوان » الشكل إنما يقصد به « تدبير الأمور والنظر في راحة الرعية وإجراء الشريعة »

كما أنهم لم ينسوا كيف أن نابليون حرم العمال المصريين من العمل في المصانع التي شيدها في مصر في ظل الاحتلال حتى لا يطعموا لذة العيش ، وحتى لا يتعلموا صناعة جديدة تعود اقتصاديا على البلاد بالنفع العميم ، ولكنه الاحتلال وكفى

وحسب المصريين أنهم تعلموا منذ ١٥٠ سنة أن كفاح الشعوب إنما هو سبيل حريتها واستقلالها ، وأن « الطرق السلمية المشروعة » أصبحت غير ذات موضوع . وصدق نبي الجهاد « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا »

محمد محمود زيتون